

البنوية التكوينية

- المفهوم والنشأة .
- أهمّ مقولاتها وإجراءاتها .
- مآخذ على المنهج .

جامعة البليدة 2 لوئيسي علي
الكتورة جميلة قوجيل

- المفهوم والنشأة :

البنبوية التكوينية LA STRUCTURALISME GENETIQUE هي فرع من فروع البنبوية ، ظهرت نتيجة البحث عن منهج توفيقيّ بينها وبين الماركسيّة التي تفسّر البنية الفوقية بما تحويه من فكر وثقافة تفسيرا ماديا واقعيًا فتربطه بالبنية التحتيّة ، و"هي منهجية تحاول البحث عن العلاقات الرّابطة بين الأثر الأدبيّ وسياقه الاجتماعي والاقتصاديّ الذي سبق تكوينه . ولا ينظر إلى هذه العلاقات على أنّها مجرد تساوق أو تواز بسيط بين الأثر الأدبيّ وبين شروط إنتاجه الاجتماعيّة والاقتصاديّة ، وإنّما يعتبرها اندماجا تدريجيًا بين سلسلة من الجمل أو الكليّات TOTALITES النّسبيّة"¹. كما تؤمن بالتّجاوب الفعّال بين الإنسان ومحيطه فتتطلق " ... من الفرضية القائلة أنّ كلّ سلوك إنسانيّ هو محاولة إعطاء جواب دلاليّ على موقف خاصّ ينزع به إلى إيجاد توازن بين فاعل الفعل والموضوع الذي يتناوله أي العالم المحيط " ² .

وقد نادى بها الفيلسوف والناقد لوسيان غولدمان (1913-1970) المتأثر بفكر أستاذه جورج لوكاتش (1885-1971) ، حيث ينتمي كلّ منهما إلى الفكر الماركسيّ. اشتغل غولدمان على علم اجتماع المعرفة وعلم اجتماع الأدب معتمدا منهاجًا جديدًا مزوجًا بين البنبوية في نظرتها الداخليّة والماركسية ببعدها الواقعي الاجتماعي. وكان تاريخ صدور كتابه " الإله الخفي: دراسة في الرؤية المأساوية ما بين كتاب الأفكار لبسكال ومسرح راسين " سنة 1955 بمثابة إعلان عن ميلاد هذا

¹ - محمد نديم خشفة : تأصيل النص - المنهج البنبوي لدى لوسيان غولدمان ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، ط1 1997 ، ص 10 .

² - لوسيان غولدمان : مقدمات في سوسيولوجية الرواية ، تر : بدر الدين عرودكي ، دار الحوار ، سوريا ، ط3 ، 1993 ، ص 229.

المنهج وهي السنة التي أعلن فيها شتراوس عن ميلاد البنيوية من خلال كتابه " المدارات الشاجية " المنشور في السنة ذاتها ³ .

يعدّ مصطلح البنيوية التكوينية الترجمة الأشهر في بلدان المغرب ثمّ انتقلت إلى بلدان المشرق ، فترجم بدر الدين عرودكي فصلا من كتاب " من أجل علم اجتماع الرواية " للوسيان غولدمان إلى " المنهج البنيوي التكويني في تاريخ الأدب " سنة 1980 . كما ترجم المصطلح إلى البنيوية التركيبية وهذا ما ظهر في كتاب جمال شحيد " في البنيوية التركيبية : دراسة في منهج لوسيان غولدمان " سنة 1982 . أمّا في بلاد المشرق فقد شاعت البنيوية التوليدية بعد صدور كتاب صلاح فضل " منهج الواقعية في الإبداع الأدبي " سنة 1978 في فصل منه مؤكّدا على مبدأ التوالد في اجتماعية الأدب عند غولدمان . ويرى جابر عصفور أنّ ترجمة البنيوية التكوينية مرتبطة بسفر التكوين ، وهو أوّل أسفار الكتاب المقدّس ويقصد به الانتقال من العدم إلى الحياة . وهذه الدلالة الدينيّة بعيدة عن المعنى الماديّ لفعل التوالد الطبقيّ الاجتماعيّ عند غولدمان ، لذلك تبنّى مصطلح التوليدية ⁴ .

وتتميّز البنيوية التكوينية عن البنيوية في عمومها بنظرتها الخاصة للبنية التي تتعدّى الحدود المغلقة إلى الجانبين الاقتصاديّ والاجتماعيّ متأثرة بالجدلية الماديّة الماركسية ، حيث تشكّل الطبقة الاجتماعية وعيا لدى الأفراد المبدعين الذين ينقلون رؤيتهم الخاصة للعالم من خلال أعمالهم الفنيّة ، " ورؤية العالم - بما تعتمد عليه من قيم - هي صلب فكرة البنية التي تقاس بها الأعمال الأدبية عند جولدمان ، وإذا كان الضمير الواقعي للجماعة إنما هو جملة الخصائص الفردية واتّجاهاتها ، فإنّه يشمل أيضا

³ - - ينظر : جابر عصفور : نظريات معاصرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مهرجان القراءة للجميع 98 ، ص 99 .

⁴ - ينظر : نفسه ، ص 83-85 .

إمكانات الفكر والعمل في تشكيل البنية الاجتماعية والتأثير المتبادل فيما بينها ، على أنّ هذا الضمير الجماعي لا يصل إلى ذروة إمكاناته عادة في الإطار الاجتماعي العام ، بل يتجلى لدى بعض الأفراد الممتازين ، وهم مبدعو الإنتاج الثقافي المهم " 5 .

- أهم مقولاتها وإجراءاتها :

- **رؤية العالم** : هو مفهوم أساس في منهج غولدمان ويمثّل كيانا وجوديًا وأنطولوجيًا قازًا يتواجد في الواقع الاجتماعي ويتجسّد في العمل الأدبيّ ، وبذلك فهو " أساس معرفي (ابستمولوجي) لفهم العلاقة بين الأجزاء والكل داخل كلّ منجزات الخلق الثقافيّ بما فيها الأدب من ناحية ، وفهم العلاقة بين أبنية الخلق الثقافيّ بعضها ببعض من ناحية ثانية ، وبينها جميعا وبين أبنية أخرى أشمل تحكمها وتنظّمها وتصل ما بينها والأوضاع التاريخيّة للمجموعة الاجتماعيّة أو الطبقة من ناحية أخيرة " 6 .

ويمثّل هذا الكيان الوجوديّ في مجموع الأفكار والمعتقدات والتطلّعات التي تميّز طبقة اجتماعيّة ما في اختلافها عن طبقة أخرى . وهي الفلسفة التي تنظر من خلالها هذه الطبقة إلى الوجود والعالم والإنسان والقيم الموجودة في المجتمع محدّدة هويّتها . ويهدف غولدمان إلى رصد رؤى العالم في الأعمال الأدبيّة من خلال عمليتي **الفهم والتفسير** بعد تحديد البنى الدّالة في شكل مقولات ذهنيّة وفلسفيّة . ويرى المبدع للنص الأدبيّ فاعلا جماعياّ يعبر عن وعي الطبقة الاجتماعيّة التي ينتمي إليها ، وهي تتصارع مع طبقة اجتماعيّة أخرى لها رؤيتها للعالم الخاصّة بها . وتهدف هذه الرؤية

⁵ - صلاح فضل : نظرية البنائية ، دار الشروق ، القاهرة ، ط1 ، 1998 ، ص 132 .

⁶ - جابر عصفور : نظريات معاصرة ، ص 109 .

إلى تطويع الموقف التي تعانیه الطبقة ولذلك هي في منظور غولدمان " خطّ متلاحم من المشاكل والإجابات " 7 .

- **الفهم والتفسير** : يتم تحليل النص تحليلاً بنيوياً تكوينياً بالاعتماد على هذا الإجراء فالعملية الأولى هي فهم النص وشرحه ، فيتمّ التّعرف على بنياته الصغرى والكبرى من خلال تحليل عناصره الفونولوجية والتركييبية والبلاغية والدلالية. يتمّ بعد ذلك تحديد بنيته الدالة وهي لحمته ونسقه الفكري الذي يستخلص ممّا تواتر فيه من تيمات .

تلي هذه العملية عملية تفسير رؤية العالم الموجودة في النص بربطها بالعوامل الخارجية المؤثرة لإبراز كيفية تشكّل هذه الرؤية من خلال العوامل الاجتماعية والتاريخية والثقافية عموماً ، وهنا يظهر مبدأ التّولد والتّكون في هذا المنهج . ويتمثّل عمل البنيويّ التّكوينيّ في الكشف عن كيفية انتقال موقف طبقة اجتماعية إلى عمل أدبيّ وذلك من خلال رؤية العالم " ولكن إدراك هذا التّحوّل ودراسته لا يمكن أن يتمّ بدراسة العمل الأدبيّ من حيث هو بنية مغلقة على ذاتها ، وإنّما من حيث هي بنية متولّدة ، والسبيل الوحيد إلى ذلك هو أن نبدأ من العمل الأدبيّ أو الفكريّ لكي ننطلق منه إلى التّاريخ ، ثمّ نعود من التّاريخ إلى العمل في حركة أشبه ما تكون بحركة المكوك " 8 .

- **الوعي الفعليّ والوعي الممكن** : الوعي الفعليّ هو الوعي الواقعي المتجسّد وهو وعي أنّي لحظي ، يعي مشاكله ولكنّه لا يجد لها حلولاً ، لذلك فهو وعي التّكيّف ووعي على مستوى السلب. أمّا الوعي الممكن فهو وعي مستقبليّ يسعى إلى تقديم الحلول لذا فهو وعي التّغيير ويتموقع على مستوى الإيجاب. ويتحوّل الوعي الممكن

7 - نفسه ، ص 114 .

8 - جابر عصفور : نظريات معاصرة ، ص 128 .

إلى رؤية للعالم عندما تتجاوز الذات الفاعلة فرديتها لتتحقق وعيا بقضايا المجتمع والعالم يمتاز بدرجة من التلاحم الداخلي والتجانس ، وهي رؤية جماعية وليست فردية محدودة وظرفية " وكلّ عمل إبداعيّ هو تجسيد لرؤية العالم التي تصنعها الذات المجاوزة للفرد ، وذلك بالمعنى الذي ينقل هذه الرؤية من مستوى الوعي الفعليّ الذي بلغته إلى مستوى الوعي الممكن ، خصوصا عندما يكشف العمل الإبداعي عن التلاحم العلائقيّ للرؤية وتجانسها الفكريّ من منظورها الخاصّ على الأقلّ " ⁹ وهذه خصوصية كبار المبدعين .

- **البنية الدالة** : هي مقولة ذهنيّة أو تصوّر فلسفيّ يتحكّم في العمل الأدبيّ ككلّ ، وهي لحمة النص ونسقه الفكري الذي يتحدّد من خلال التواتر الدلالي وتكرار بنيات ملحة على نسيج النصّ الإبداعيّ . وتسهم هذه البنية الدالة في فهم النص وتحديد رؤية المبدع للعالم .

- **الحقيقة الاستيعابية** : تكمن - عند غولدمان - في تحقيق التّجاوب الداخلي والخارجي . أمّا الدّاخلّيّ فيكون بين العالم المصاغ والوسائل الأدبيّة والتقنيات الموظّفة من جانب صوتي وتركيبّي وبلاغيّ وغيرها . أمّا الخارجيّ فيكون بين رؤية العالم التي تمثّل واقع الطبقة الاجتماعية وعالم الأديب الذي يصنعه ¹⁰.

- **مآخذ على المنهج** : من أهمّ الانتقادات الموجّهة للبنية التكوينية نذكر :

- **التناقض في فكر غولدمان** حيث ركّز على التلاحم والوحدة في رؤية العالم والعمل الأدبيّ في حين أنّ الفكر الماركسيّ يقوم على الجدلية ، والقول بالتلاحم تمسك بالبنية الساكنة الثابتة ، وهذا يقضي على الصراع والتنوّع ويفرض قطبا واحدا . وقد حاول غولدمان تجاوز هذا التناقض والأخذ بهذا الانتقاد في محاولة لإبراز التنوّع وذلك

⁹ - جابر عصفور : نظريات معاصرة ، ص 111 .

¹⁰ - نفسه ، ص 160 .

بالتأكيد على ما تتضمنه النصوص الأدبية من وظيفة نقدية أساسية ، و عوض التركيز على التلاحم فحسب يبرز القيم المرفوضة التي تحول دون الرؤية التي هي عماد وحدة العمل الأدبي ، وهذا تأكيد على الصراع والتنوع الداخلي . ويلجّ غولدمان على تناول الصراع عبر عدّة مستويات : على مستوى المركّب القيمي المتبني في النص والمركّب القيمي الضديد . وعلى المستوى الفردي والجماعي ضمن رؤية العالم ، وكذا الصراع بين مستويات الصياغة من الناحية الفنية¹¹ .

- **النظرة الآلية** : وذلك من خلال مفهوم التماثل الذي قال به غولدمان بين العمل الأدبي والطبقة الاجتماعية حيث تتماثل الأشكال الأدبية مع البنيات الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية ، لكنّ أهمّ الأعمال المتميزة والخالدة هي التي تخالف واقعها وتتنبأ بالمستقبل وتكون سببا في ثورة على مختلف الأصعدة على رأسها الصعيد الفني والواقعي .

- **إشكالية تأويل النص** : إنّ التركيز على التولّد التاريخي لبنية النص تركيز على بعض مستويات الحقيقة الجمالية وليس كلّ مستوياتها ، حيث نتساءل عن وظيفته في غير عصره أو بالنسبة لغير طبقته التي تعيش ظروفًا مغايرة . يجيب غولدمان عن هذه الإشكالية في " الإله الخفي " بأنّ النصّ الفني هو الذي يعبر عن القضايا الإنسانية الكبرى ، وبذلك يحافظ على قيمته حتى خارج طبقته الاجتماعية ، ويكون التجاوب مع مواقف تاريخية متباينة وهذا يعني الولادة المتعاقبة والمتجددة للنص ، لكنّ ذلك يجعلنا نتساءل عن الشرح والتفسير : هل يظلّ الشرح ثابتا أمّا التفسير المتعلّق بالمجتمع فيتغيّر أم تثبت دلالة النص ويتغيّر الشرح والتفسير ؟ وهذا ما يطرح إشكالات على مستوى التأويل والقراءة المتعدّدة عبر الأزمنة المختلفة¹² .

11 - ينظر : ، جابر عصفور : نظريات معاصرة ، ص 166 - 177 .

12 - ينظر : نفسه ، ص 178 - 179 .

- مصادر البحث ومراجعته :

- 1- محمد نديم خشفة : تأصيل النص - المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، ط1 ، 1997 .
- 2 - لوسيان غولدمان : مقدمات في سوسولوجية الرواية ، تر : بدر الدين عرودكي ، دار الحوار ، سوريا ، ط3 ، 1993 .
- 3- صلاح فضل : نظرية البنائية ، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1998 .
- 4- جابر عصفور : نظريات معاصرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مهرجان القراءة للجميع 98 .